مختبر اللّهجات ومعالجة الكلام

جامعة وهران 1
Université d'Oran
أحمد بن بلة

مجلّة الكلم

دوريّة محكّمة تصدر عن مختبر اللّهجات ومعالجة الكلام

جامعة وهران1 أحمد بن بلّة – الجزائر

العدد: 04 ديسمبر: 2017

مديرة المجلّة: أ.د سعاد بسناسي رئيس التّحرير: أ.د مكّي درّار

تجدون في هذا العدد:

- صناعة السّعادة باللّغة والكتابة
  أ.د عبد المالك مرتاض
- قراءة في ابتدائيّة مرثيّة الشّيخ مصطفى الرّماصي
  أ.د محمّد بشير بويجرة
- رثاء الحبيبة في الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ قراءة في قصيدة حيزية لابن قيطون
  الباحث: عبد المؤمن رحماني
- الشّخصيّة الفجريّة والتّطلّع للحريّة عند لورانس ونجيب محفوظ
  أ.د مراد عبد الرّحمن مبروك
- تطوّر أنماط الرّمز في الشّعر العربيّ
  د. علي فتح الله أحمد محمّد

ISS : 2543-3822
الإيداع القانوني: ديسمبر 2017

منشورات مختبر البحث: اللّهجات ومعالجة الكلام
LA BORATOIRE DE RECHERCHE : DIALECT ET TRAITMENT DE PAROLE

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكلم

مجلّة دوريّة محكّمة تصدر عن مختبر
اللّهجات ومعالجة الكلام
جامعة أحمد بن بلّة 1- وهران-الجزائر

العدد: 04/ 2017

مدير المجلّة: **أ.د. سعاد بسناسي**
رئيس التّحرير: **أ.د. مكي درار**

هيئة التّحرير:

د. هشام رحّال
د.فاطمة بن عدة
د.نورالدّين زرّادي
د.عبد الكريم حمو
د.الميلود منصوري
د.زهرة عابد
د. تازغت بلعيد

ISSN: 2543-3822
الإيداع القانوني: ديسمبر 2017

ISSN :.....

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منشورات
مختبر اللّهجات ومعالجة الكلام
جامعة وهران 1- أحمد بن بلة – الجزائر.

طباعة

.....
للطباعة والنشر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكَلِمْ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجلّة دوريّة محكّمة تصدر عن مختبر اللّهجات ومعالجة الكلام
جامعة وهران1 - أحمد بن بلّة - الجزائر

الهيئة العلميّة والاستشاريّة من داخل الوطن	أ.د.مكّي درّار	جامعة وهران1/أحمد بن بلّة
	أ.د.عبد الملك مرتاض	جامعة وهران1/أحمد بن بلّة
	أ.د.محمّد البشير بويجرة	جامعة وهران1/أحمد بن بلّة
	أ.د.خليفة صحراوي	جامعة باجي مختار/عنّابة
	أ.د.عمّار ساسي	جامعة سعد دحلب/البليدة
	أ.د.محمّد بوعمامة	جامعة الحاج لخضر/باتنة
	أ.د.صالح بلعيد	رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
	أ.د.عبد القادر شرف	جامعة حسيبة بن بوعلي/الشلف
	د.رمضان حينوني	المركز الجامعيّ تمنراست
	د.آيت مختار حفيظة	جامعة آكلي محند الحاج/البويرة
	أ.د.عبد القادر فيدوح	جامعة البحرين
	أ.د أحمد حساني	جامعة الإمارات
الهيئة العلميّة والاستشاريّة من خارج الوطن	أ.د. خالد علي حسن الغزالي	جامعة صنعاء/اليمن
	أ.د.محمّد بن هادي علي الشّهري	المملكة العربيّة السّعوديّة
	أ.د.عبد الرّزاق مجدوب	المملكة المغربيّة/مرّاكش
	أ.د محمد علي سلامة	كلية الآداب جامعة حلوان/مصر
	د.محمّد بسناسي	جامعة ليون2/فرنسا
	د. سلوى عثمان أحمد محمّد	جامعة النيلين/السودان
	د.فدوى العذاري	جامعة سوسة/تونس
	د. مصطفى طاهر أحمد الحيادرة	جامعة اليرموك/الأردن
	د.رفيدة الحبش	جامعة كندا
	د. محمد راشد الندوي	الكلية الهندية العالمية.جدة/السعودية
	د. إبراهيم أحمد سلّام الشيخ عيد	جامعة غزة/فلسطين
	د. فرانسيسكو مسكسو	الجامعة المستقلّة مدريد/إسبانيا
	د.صلاح عبد القادر كزاره	جامعة حلب/سوريا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توجه المراسلات: majalatalkalim@gmail.com

الكَلِمْ

مجلة دورية محكمة تصدر عن مختبر اللهجات ومعالجة الكلام
جامعة أحمد بن بلة 1- وهران-الجزائر

العدد: 04/ 2017

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قواعد النّشر:

ترحّب مجلّة (الكلم) التّي تصدر عن مخبر (**اللّهجات ومعالجة الكلام**) بنشر كلّ بحث علميّ، يهتمّ بالفصحى في علاقاتها التّكامليّة وصلاتها التّمايزيّة باللّهجات الجزائريّة والعربيّة والإفريقيّة والعالميّة الإنسانيّة، واستبطان مواطن التّأثّر والتّأثير وعلّة ذلك، وخلفيّاته السّوسيوثقافيّة، والسّوسيولسانيّة، والأنثربولوجيّة.

كما تهتمّ المجلّة بكلّ البحوث العلميّة المهتمّة بالتّراث والثّقافة الشّعبيّة، وصلتها باللّهجة في الموضوعات الآتية:

الأمثال الشّعبيّة والحكم، الأقوال المأثورة، الشّعر الشّعبيّ والملحون، الألغاز الشّعبيّة، البوقالات، التّعابير اللّهجيّة المتداولة في مختلف المناسبات الجزائريّة، تعابير النّساء في مجالات معيّنة، وتعابير الرّجال في حالات معيّنة، ومواطن تأثير المهن والوظائف والحرف على تعابير أصحابها، وتداول اللّهجة في المجال التّعليميّ والإعلاميّ ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، وكذا في مختلف الفنون الأدبيّة والتّمثيليّة والمسرحيّة.

تنشر المجلّة وترحّب مجدّدا بكافّة الأساتذة والباحثين الرّاغبين في المشاركة ببحوثهم العلميّة في المجالات المذكورة سلفا، وتقبل النّشر وفق الشّروط الآتية:

- أن يتميّز البحث بالأصالة، والجدّة، والموضوعيّة.
- أن يراعى في البحث المنهجيّة العلميّة، وأن يلتزم صاحبه بالأمانة العلميّة.
- أن تكون إحالات البحث وهوامشه في نهاية البحث.
- لا تدع فراغا (Espace) قبل الفاصلة والنقطة، بل بعدهما، ولا تدع (Espace) بعد الواو.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- مع إرفاق البحث بملخّص بالعربيّة يُرسل البحث في شكل ملف (word) عبر البريد الإلكترونيّ للمجلّة: (**majalatalkalim@gmail.com**)، وآخر بإحدى اللّغتين الفرنسيّة أو الإنجليزيّة.
- تخضع المقالات جميعها للتّحكيم من قبل هيئة علميّة متخصّصة في سريّة تامّة.
- **البحوث المنشورة تعبّرعن آراء أصحابها، ولا تعبّرعن رأي المجلّة.**
- لا تردّ المقالات لأصحابها نشرت أم لم تنشر.
- يرفق الباحث مقاله بملخّص عن سيرته الذّاتيّة.
- للمجلّة حقّ التّصرّف في ما له علاقة بالمنهجيّة العلميّة للمقال.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محتويات العدد 04

افتتاحيّة		06
صناعة السعادة باللغة والكتابة، أ.د عبد المالك مرتاض	جامعة وهران1 أحمد بن بلّة	08
قراءة ابتدائية في مرثية الشيخ مصطفى الرّماصي أ.د. محمد بشير بويجرة	جامعة وهران1 أحمد بن بلّة	28
رثاء الحبيبة في الشعر الشعبي الجزائري قراءة في قصيدة حيزية لابن قيطون الباحث: عبد المؤمن رحماني	جامعة وهران1 أحمد بن بلّة	46
الشخصية الغجرية والتطلع للحرية عند لورانس ونجيب محفوظ أ. د. مراد عبد الرحمن مبروك	جامعة قطر	57
تطور أنماط الرمز في الشعر العربي د.علي فتح الله أحمد محمد	كلية الآداب -جامعة قطر	82
اللغة والأدب الشعبي د. سلوى عثمان أحمد	جامعة النيلين	105
التحليل الحِجاجي لقصيدة الوصف الجاهلية د. تركي أمحمد	المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان	125
THE CONCEPT OF FACE IN ALGERIAN EXPRESSIONS P.DALI YOUCEF Lynda	Ecole Normale Supérieure d'Oran	151

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

نقدّم مجلّة (الكلم) إلى القرّاء الكرام، مستلهمين قوله تعالى: (إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيّبُ) وكلّنا أمل، في أن يحظى هذا العدد برضى القرّاء، ويتلقّى توجيهاتهم وإرشاداتهم، وأن يلفت انتباههم إلى ما احتوت عليه موضوعات المجلّة من مقالات، في مختلف المستويات اللّسانيّة، والموضوعات الأدبيّة، والمجالات الاجتماعيّة.

وإنّ ما في هذا العدد من مقالات، انصبّ على إنجازها مختصّون، ودعمها محكّمون، وقد روعي فيها، أن تكون لها أبعاد فكريّة، وخلفيّات اجتماعيّة، وظلال إنسانيّة.

ومبتغى هذه الدّوريّة، نصف الحوليّة، . بعد صدور العدد الرّابع . في موضوع اللّهجة واللّهجات، أن تقيم العلاقة الوظيفيّة، بين أصالة التعبير الفصيح، والمنطوق اللّهجيّ النّظيف، وأن تصنّف الغريب والدّخيل، وأن تضع كلاّ منهما في موضعه، وتردّه إلى أصله وأصوله. وشعارنا في مجال اللّهجة، يسعى إلى تحقيق مستويين: أوّلهما تنقية اللّهجة، وثانيهما ترقيتها. وحول التّنقية والتّرقية، تتحرّك جميع موضوعات المجلّة.

وممّا نأمله من كلّ مشارك في هذه المجلّة، أن يجمع قواه ويحصر إنجازه في المستويين المذكورين. تنقية وترقية، مع تنويع في كيفيّات الإنجاز، كالوصف المفيد في مدخرات المجلّة، والتّحليل الموجّه إلى كيفيّات التّعامل مع اللّهجة، والتّعليل المدبّر في التّفكير اللّهجيّ.

وممّا لوحظ عن جذور التّعبير اللّهجيّ وأصوله في الجزائر، أنّه تتجاذبه مرجعيّات عديدة؛ أوّلها العربيّة، وهي الفاعل البالغ التّأثير في النّطق والأداء، صوتا ومفردات، وتراكيب، وأساليب. ثمّ الأمازيغيّة بكلّ أبعادها التّاريخيّة والاجتماعيّة، وتلويناتها الصّوتيّة، وإيحاءاتها اللّفظيّة. وعددها كثير. ثمّ اللّغة التّركيّة بمفرداتها؛ وتراكيبها في مثل: (بايلك، وقهواجيّ وخزناجيّ) والفرنسيّة بتوغّلها في طبقات المجتمع وتعابيره عن حاجاته. وهي كثيرة أيضا، مندسّة في المفردات والتّراكيب، في مثل: (مرسوات، وطاكسيّات وشامبرات) ثم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسبانيّة، وبعض الشّذرات من لغات عالميّة كالهنديّة، والباكستانيّة، والفارسيّة، والعبريّة، وغيرها، ويشيع هذا في أسماء الأعيان بخاصّة.

وباعتماد المسموع من اللّهجات، وملاحظة وظائفها وتوظيفها في مجالات الحياة، وبمحاولة التّصنيف حسب التّوظيف، والاكتمال في مجالات الاستعمال، نرسو على ما هو عمليّ، وظيفيّ، فاعل في مجالات الحياة، ثمّ منه تكون المنطلقات نحو الغايات.

هذه إلمامة بمجلّة (الكلم) منهجا، ومادّة، وموضوعا، ومسارا، ومعالم، وغايات، وأهدافا، وعلى المشاركين اعتمدنا في إنجاز الأعمال، وعلى الله توكلنا في كلّ حال.

هيئة تحرير المجلّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صناعة السعادة باللغة والكتابة

أ.د عبد الملك مرتاض
جامعة وهران 1أحمد بن بلّة
كليّة الآداب والفنون

الذين يكتبُون، يلتمسون اللّذَّة والسعادة فيما يكتبون، ولذلك لا يزالون يكتبون؛ والذين يقرؤون الكتابة يجدون اللّذَّة والسعادة فيما يقرؤون ولذلك لا يزالون يقرؤون (عبد الملك مرتاض).

... وما هذا الشيءُ الذي يكاد يلامِس القدسيّة، بل يكاد يطاول العناية العليا، والذي تسمّيه اللُّغةُ: اللغةَ؟

وإنّا لا ندري لما ذا جاءت اللغة -في العربيّة، كما يزعم علماؤها-من مأدَّة (ل غ و) التي تعني أساساً اللَّغْوَى؟ وهل من العدل والمنطق أن تكون اللغةُ من حيث هي ناطقةٌ دالّة، وعارفة معرِّفةٌ، ومبلِّغة معبّرة، وواصلة بين البشر: مجرّدَ لَغْوى؟ أي مجرّدَ شيءٍ يدلّ على اللَّغْو! إنّا نرى أنّ هذا الاشتقاق المُهين لا يليق بمنزلة اللغة التي هي إعجاز الله في خلْقه. بل إنّا لا نرى اللغة إلاّ أنّ اللغة لغزٌ من الألغاز المحيّرة يَحْدَودِق بها من سائر أطرافها، دلالةً وتأثيلاً. ثمّ لمَ كانت اللغة -في العربيّة-أنثى، ولم تكُ ذَكَراً؟ أليس ذلك من تقديس العرب لهذه اللغة، إذ معظم آلهتهم وأصنامهم كُنَّ إناثاً؟ فكيف، إذنْ، جاءوا بها من اللَّغْوَى؟ أم أليستِ اللغوَى هي القولَ الباطل؟ هي الهوَسُ والهذَيانُ! ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا مرّوا باللَّغْو مرّوا كِراماً﴾ فقد فُسّر اللغوُ في الآية على أنّه الباطل.[1] فالكلاب تلغُو حين تنبح، هكذا تقول معاجم اللغة، وإذن، فما هذه الإهانة التي لطّخ بها العلماء الأقدمون سرّ الله في خلْقه؟ ...

ولذلك فنحن نجنح لِلذَّهاب إلى أنّ اشتقاقها ربما جاء من لَغِيَ يلْغَى لَغْياً، لا من لغا الشخصُ يلغو لغواً، إذا قال باطلاً، وهَذَى! فلغِيَ بالشيء: لهِجَ به، لأنّا حين نتحدّث باللغة كأنّنا نلهج بذكْر الألفاظ، فنُكْثِر، ومنه قولهم: لهِجَ بالشراب إذا أكثر منه.[2] فاللَّغْيُ، في العربيّة، الإكثار من الشيء، والأصل فيه للإكثار من الشراب: شرابِ الماء أو غيرِه. والطير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حين تتغنّى: «تلْغَى بأصواتها، أي تَنْغَم».[3] أفتغَنّي الطيرُ وتلغَى بأصواتها، ويلغو الإنسان بأصواته اللغويّة ويهذي بها هذَياناً؟

من أجل كلّ ذلك ننزّه اللغةَ عن أن تكون مأخوذةً من اللغْو الذي هو الباطل والهذيان، ولكنّا نجنح لأخْذها إمّا من اللَّغْيِ الذي يأتي بمعنى الإكثار، وإمّا من لَغْيِ الطيرِ الذي يأتي بمعنى التغريد والتنغيم. وإمّا لا، (بلغة رسول الله)، فكيف يستطيع مجرّدُ صوتٍ طائرٍ أن يغتديَ معنىً عظيماً حين يتشكّل مع صِنْوانِهِ من أصوات الحروف، كيفَهْ؟ وأين يكمُن السّرّ في هذه العجائبيّة الصوتيّة التي يقَع بها النطقُ فتغتديَ سبيلاً للتواصل بين المتخاطِبين، أينَهْ؟ وإنّها لأصواتٌ سِحريّة عبقريّة إلهيّة يفكّك لُغزَها الدماغُ بسرعة مذهلة، وتلقائيّة عِنائيّة، فيقع التواصل، إذا كانت هذه الأصوات من نظام اللغة المتواصَلِ بها، فوراً.

اللغة، ما اللغة؟ إنّها هذه الأصوات الطّائرة؛ هذه الْوَأْمَاتُ الصّوتيّة السّاحرة. بل هذه الأصوات المتتاليَة، المتقطّعة، المترتّلة، المتفجّرة، الْمُنْكَتِمة، المنكشفة... هذه الإشارات العجيبة، بل العجائبيّةُ، التي يُصدرها الدّماغ إلى جهاز الكلام: فتَتَحلْحل الشّفتان فتتحرّكان بنظام معلوم لا تعْدوه، وتعمل اللَّهاة، ويتحرّك اللسان، أثناء ذلك، دون عَناء، وتصوّت حِبال الحَنجَرة؛ فتشتغل بنظام صوتيّ طبيعيّ في غاية الإحكام؛ فيكون الكلام الذي هو عطاءُ اللّغة وثمرتُها، وتكون الدّلالة الدّالّة، فيُفْضي ذلك إلى التّواصل بين المتخاطَبين، ويقع التّفاهم بين المتكلّمين. كلّ ذلك والوهم منصرف إلى اللّغة غيرِ المكتوبة.
ذلك بأنّ اللغة، في الأصل، هي غيرُ الكلام المكتوبِ، كما يُقِرّ ذلك أفلاطونُ الذي لا يعترف إلاّ باللغة المنطوقة، حيثُ إنّ تِيكَ الْوَأْمَاتِ الصوتيّةَ السّحريّة المكتومة في وجود العَدَم، وفي ضمير المجهول، هي التي يحوّلها نظام الخطِّ إلى لغة أخرى، في شكل حروف مرقومة، لا في شكل أصوات منطوقة، على الأصل. وهذه الكتابة التي تترجِم الأصواتَ الكامناتِ في ضمير النفس هنّ أيضاً عجائبيّاتٌ، حيث صار شكل الرسم سمةً حاضرةً، دالّةً على سمة غائبة، فصارت جِهازاً مُمَاثِلِيّاً (ايقونيّاً باللغة المرطَّنة بين الْمُتراطِنين).

ها الأصواتُ استحالتْ إلى دلالات معبّرة، وسِماتٍ معبَّرة، ولكنْ في المشافهة والْمُناطَقة، غير أنّ المعجزة العظيمة هي أنّ الأصواتَ استحالتْ إلى حروفٍ دالّةٍ على تيك الأصوات الناطقة، فاكتملت مقوّمات هذا الإنجاز البشريّ العظيم؛ إذ صار الصوتُ كلمةً تُرقَن على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قرطاس، بعد أن كان لفظاً ملفوظاً مركّباً من أصوات؛ أي إلى كتابة مرصوفة على القرطاس، في إنجازٍ عجائبيّ عسيرِ التفسير.

رسومٌ بسيطةٌ تجسّد لغةً؛ ولغةٌ منتظِمة من نبراتٍ صوتيّة دالّة تمثّل كلاماً؛ وكلامٌ مستمَدٌّ من تِيك الأصواتِ التي تغتدي خرساءَ غيرَ منطوقةٍ لتجسّد، آخرَ الأمر، كتابةً. وتيك الكتابة تمثّل نصّاً؛ وذَيّالكَ النصُّ يمثّل أدباً؛ وذيّالك الأدب يجسّد فنّاً وجمالاً، ومتاعاً وخيالاً، ولَذاذة روحية ووجدانيّة ليس لجمالها الفنيّ من حدود؛ فتُسعِد القلوب، فتنتشي لذلك انتشاءً، بل قد تطرَبُ له طرَباً، بل قد ترقُص منه رَقَصاً، إذا استحالت أصوات اللغة الطائرة إلى إيقاعات شعريّة منتظمة، تسُرّ المتلقّين سروراً، وتُسعد الْمُقْترئين إسعاداً.

أن تأْتُوَ الكتابةُ المرقومة، بعد النطق والمشافهه، لأمرٌ يمثّل عجائبيّة وإعجازاً بشريّاً، سخّره الإنسان لنفسه تسخيراً!

فلا كتابةَ الاّ باللغة؛ ولا لغة، أيضاً، إلاّ بالكتابة، وإن رغِمَ أنْفُ أفلاطونَ!

واللّغة عطاءُ اللّسان؛ واللّسان عطاء الطّبيعة؛ والطّبيعة عطاء اللّه العظيم، لا يستطيع ديّارُ، هنا، أن يُقْصِيَ العناية الإلهيّة بعد اضطراب كلّ تفسير، وعَيّ كلّ تأويلٍ. فاللغة جزء، واللّسان كلٌّ. فكأنّ اللّغة للواحد، واللّسانَ للجماعة. فإنما اللّغة مجموعة الألفاظ التي يختارها كاتب من الكاتِبين، أو حتّى كُتْبوب[4] من الكَتابِيب؛ ليتّخذَها من مجموع اللّغة التي تشكّل لسان أمّة بحذافيره. فاللّسان هو النّحو والصّرف والمعجم وما فيه من ذخائر المفردات المتناثرة. هو ما كان من اللّغة قديماً وحديثاً، وأصيلاً ودخيلاً؛ فهو يشمل الزّمانية والآنيّة جميعاً. على حينَ أنّ اللّغة آنيَّة فقَدْ. تنصرف إلى زمن بعينه لا تعدوه. وقد تنصرف إلى كاتب من الكتّاب معيّن، أو إلى مجموعة من الكتّاب محصورين في حيز من الزّمن.

فالكتّاب، أو الكاتبون، إذن، شركاءُ في اللّغة لعصر من العصور، وهم، من خلال ذلك، صُنّاع سعادة القرّاء. فكأنّ اللّغة طبيعة لطيفة تمرّ عبْر كلمة الكاتب وروحه فتزهُو وتختال؛ دون أن يمنحَها، مع ذلك، أو تمنحَه هي، أيَّ شكلٍ جاهز، بل هو الذي يشكّلها. إنّ اللّغة تحتوي كلّ الإبداع الأدبي؛ فهي كالسّماء والأرض حيث إنّ اتّساقهما يرسم للإنسان مسكِناً مألوفاً... فليست اللّغة، بالقياس إلى الكاتب، إلاّ أفقاً إنسانيّاً يؤسِّس ضرْباً من الابتذاليّة، قَصِيّاً.[5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالكتّاب إذن، ولكن حين ينصرف الوهم إلى عصر من الأعصار خِصِّيصَى، شركاءُ في اللّغة كعامّة النّاس الذين هم شركاءُ في الهواء والماء والكلإ والنّور ... فاللّغة التي كان شعراء الجاهليّة الأولى يُنشئون بها أشعارهم لم تعُد، شئنا أم أبَينا، اللغةَ التي نكتب بها نحن اليوم بكل ألفاظها ودلالاتها ومصطلحاتها... وذلك على الرّغم من أنّنا لا نبرح نقرأ الشّعر الجاهليّ فنستمتع بقراءته، ونتلذّذ بسماعه إذا رُدِّد على مسامعنا، لأنّه لا شعرَ عربيّاً (أو: عربيٌّ، أو عرَبِيَّ) بعدَه! إذْ ما بعده قد لا يعدو أن يكون فُتاتَ أشعار، واقتفاء آثار، ولَغْوَ رجال، ليس غيراً.

واللّغة التي كان يكتب بها ابن المقفع، وعبد الحميد، وابن العميد، والجاحظ، وأبو حيّان، وأبو العلاء، وابن بسّام، وابن الخطيب، والهمذانيّ، والحريريّ... هي لغة تختلف، إلى حدّ كبير، أو إلى حدّ ما، عن اللّغة التي نكتب بها نحن اليوم، لكنّ الغاية تظلّ واحدةً وإن اختلفت الوسيلة قليلاً، فكلاً كان يبحث عن بثّ السعادة من خلال التعبير بألفاظ اللغة الصوتيّة، فكان أُولالِك الكتّاب العظماءُ أكبرَ صُنّاع السعادة في تيك العصور. ولا نتحدّث عن الشعراء الذين تفانَوْا تفانِياً كبيراً، وتفنّنوا تفنُّناً عظيماً، في نفْخ أصوات اللغة الجامدة بدلالاتٍ تشبه الْوَمَآتِ الروحيّةَ العليا، فأطربوا وأعجبوا. ولا نزال إلى اليوم حين نقرؤهم إنّما نلتمس اللَّذاذة الروحيّة، والمتعة الفنّيّة من خلال قراءة ما تركوا لنا من تيك النصوص الشعريّة العظيمة، التي ربما لن يجود الزمن بمثلها أبداً. حقّاً، إنّ القرآن المجيد خلّد العربيّة. حافظ على صفتها الزّمانيّة خِصِّيصَى؛ أو خفّف، على الأقل، من غُلواء الآنيَّةِ فيها فجعلها تتطوّر داخل نفسها لا خارج إطار الذات كما حدث لكثير من اللّغات في العالم؛ ومنها اللاّتينية التي تفرّعت إلى طائفة من اللّغات؛ فماتت الأمّ بعد أن نجَلَت البناتِ الثلاثَ: الإسبانيّةَ، والفرنسيّة، والإيطاليّة.

بيد أنّ تخليد القرآن للعربيّة لم يمنع، كما سلفت الإشارة، من تطوّر هذه اللّغة عبر نفسها، وفي إطار المعطيات النّحوية والصّرفيّة والمعجميّة ذاتها؛ فإذا آلاف من الألفاظ الجديدة، لمستكشفات جديدة، ومعانٍ جديدة، لم تكن تخطر لأكبر كتّاب العربية على خَلَد. ولو بُعث أبو عثمان الجاحظ اليومَ من رمْسه لكان عجز عن فهم كثير ممّا نكتب؛ خصوصاً في الحقول غيرِ الأدبيّة؛ بحكم وجود هذه القائمة الطويلة من المصطلحات اللّسانيَّاتيّة والسِّيمَائية والنّقديّة الجديدة التي تعِجّ بها لغة الأدباءِ وأساتذةِ الجامعة المعاصرين. وذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحدُ البُرْهاناتِ، بلغة الجاحظ، على أنّ العربيّة على ما تختصّ به سيرتُها من زمانيّة (Diachronie) لا تُنكَر، فهي أيضاً آنِيّةٌ (Synchronie) ولكنّها تنشَط مجازيّاً.[6]

ولعل قولَ اللغة غيرُ ما يجب، أو ما يمكن، أن تقول في حقيقتها: أن يكون مستوحىً من مقولة كافكا الشّهيرة: «إني لأكتب على غير ما أتكلم؛ وأتكلم على غير ما أفكّر؛ وأفكّر على غير ما كان يجب أن أفكر؛ وهكذا دوالَيْك إلى أعمق أعماق الظلام»[7]

قصور اللغة في التعبير عن السعادة الطافحة

إنّ كافكا يتّهم، في مقولته الشهيرة التي جئنا عليها ذِكْراً، اللّغة بالضّعف والقصور، وأنّها لا تستطيع، من منظوره هو على الأقلّ، أن تترجم ما في النّفس أو الخيال أو القريحة على النّحو الذي يرام منها. وإذن، فما يكتبه الكاتب لا يمكن أن يكون معادلاً، بالضّرورة، لما يتحدّث به؛ فهو إمّا أن يتسامَى عنه تسامِياً، وإما أن يُسفّ عليه إسفافاً. ولا يقال إلاّ نحوُ ذلك في التكلم بالقياس الى التّعبير عن الوعْي والضّمير. فاللّغة قاصرة عن أن تعكس عكساً أميناً تفكيرَ الكاتب الذي كثيراً ما يكون أكبر منها، وأقوى من طاقتها التّبليغيّة، وقدرتها التّعبيريّة فينشأ ضرب من النَّشاز بين اللّغة والتّفكير. لكنّما التّفكيرُ نفسُه، في نفسه، لا يمثُل مفرَّغاً في نسج اللّغة على النّحو الذي كان يجب أن يكون عليه. وإذن، فالكتابة قاصرة، واللّغة قاصرة، والتّعبير، غالباً هو أيضاً، قاصر. والتفكير أقصر. فكلٌّ، هنا، متّهَمٌ بهذا القصور. ولذلك قد يلتحد الإنسان إلى وسائلَ غيرِ اللغة، وسَواءِ الكتابة الأدبيّة، في صنع سعادته، فيفزع إلى الإستماع إلى الموسيقَى فيطرب طرباً، وربما يذهب إلى الملعب ليشاهد مباراة كرة قدمٍ مثيرة، ليتلذّذَ، هنا، بما يرى، لا بما يسمع أو يقرأ، فالمشاهدة تحلّ محلّ التلقّي والإقتراء معاً.

لكنّ هذا قد يكون مجرد تحذلق وتفلسف، وجرَياناً على مقولتي كافكا وأندري أكون؛ وإلاّ فإن اللّغة لا تكون، في كل الأطوار، قاصرةً حقّاً، ولا التفكيرُ في كلّ الأحوال يكون عاجزاً فعلاً؛ فقد نُلفي عقل الكاتب أكبرَ من لغته؛ وقد نلفي لغتَه أجملَ وأغنى من عقله؛ وقد يوجَدُ شيءٌ من الانسجام بينهما: فلا تِيك تطغُو على هذا، ولا هذا يطغُو على تِيك؛ ولكنّهما يتعاملان على نحو من المساواة والانسجام. وربما هذه هي الحال المُثلى لهذه المسألة اللّطيفة.

أرأيت أننا نصادف كتابات يتّفق قرّاؤها على أنّها رائعة لا ينقصها، أو لا يكاد ينقصها، شيء: من حيث نسْجُها، ولغتُها، وأسلوبها، والأفكار التي تحتمل [وإن كان الحداثيون

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يرفضون، صراحة أو ضمناً، مسألة الفكر في الكتابة الأدبية؛ ويرَون أنّ اللّغة هي التي تعمل بنفسها في نفسها؛ فلا شيءَ يوجد، إذن، من منظورهم، خارج اللّغة، لأنّ الفكر فلسفة لا أدبٌ، فالأدب لغةٌ وحدَها، واللغةُ ألفاظ وحدَها، فكأنّها في عبثيّة الحداثة الفرنسيّة لا تحمِل وعْياً ولا فكراً!] الآمال التي ترسم، والآلام التي تصوّر، والتجارب التي تقدّم... فكيف يكتب الكاتب، إذن، على غير ما يتكلم، ويتكلم المتحدّث على غير ما يفكّر فيه، كيفَهْ؟ وهل يعود ذلك إلى نقص في كفاءة اللّغة من حيث هي وسيلة عبقريّة للتعبير؟ أم إلى نقص في نفس الْمُستعمِلِهَا من حيث هو باثٌّ أو مُرسِل، أو كاتبٌ وقارئٌ؟ أم إلى نقص فيهما معاً؟

إنّ كافكا إنّما يصف حالة عَيِيّ متناهي العِيّ، وبَكِيءٍ بالغِ البِكَاءِ، وفَهٍ قبيحِ الفَهاهةِ: يريد أن يتكلمَ فيَرْتَجَ في منطِقه؛ ويرومَ أن يكتب فيصابَ بالخرَسِ والضّحالة، والحصَر والبَكاءة.

إنّ الكتابة هي هذا النّظام السِّيمائي المرئيّ، الفضائيّ[8] جميعاً. ولكنّ جمال الكتابة ليس في مَرْآتها، ولا في فضائيّتها، ولا في سِيمَائِيّة وَمَآتِها الصّوتيّة، ولا في أشكالها المرقومة على قرطاسٍ؛ ولكنّه يمثُل في كلّ ذلك جميعاً. فاللَّعِبُ، أو التّلاعبُ، بالألفاظ قد يُفضي إلى بهلوانيّة لغويّة، كما قد يفضي إلى نسيج من الجنون لا يعني أيّ مدلول؛ من أجل ذلك لا يكون كتابة حقيقيّة؛ إذ مثلُ ذلك يندرج ضمن دائرة العبث والهذيان... ذلك بأن الكتابة، ولاسيّما الكتابة الجديدة، على ما يبدو فيها من عبثيّة، وتلاعُب بالألفاظ، وتحذلق مقصود في نسْج الأسلوب (وإن كانت هذه الخصائص كانت موجودةً في نسوج الكتابات القديمة، ولكنْ على نحوٍ مختلف قليلاً)؛ فإنّها تظلّ، في كلّ الأطوار، محكومة بالقدْر الأدنى من المنطق الذي يكون بمثابة الخيط الذي يمسك القارئ بالمكتوب، ويمنحه الوسيلة التي بها يتولّج إلى زوايا النّصّ وجنباته ليتحكّم فيه، ويتلذّذ به؛ على هدْيٍ من دلالته.

فاللغة أمّ الكلمة؛ فكأنّها هي الحقيقة. عين الحقيقة. كأنّها هي الطّبيعة. كأنّها نفْسُ الطّبيعةِ. فالكلمة ابنة اللغة. والكتابة ابنة الكلمة؛ فهي جذع منها. وكأنّ الكتابة، في هذه الحال، مجرد إضافة اصطناعية؛ اشتقاق لا ضرورة له آخرَ الأمر.[9] فما الكتابة إذن؟ وما هُوِيَّتُها؟ وأين تكمن السعادة منها؟ وأين تتجلّى اللّذْوَى، بلغة عائشة، فيها؟ ولما ذا لم يتفق المنظّرون على هُويّتها هذه، أي على تقديم تعريف جامعٍ مانع لها؟ ولا سيما ما له صلة بالتمييز بين عالمين اثنين مختلفين: الكتابة الكلاسيكية، والكتابة الجديدة.[10]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهل الكتابة كالهواء: يُحَسّ ولا يُلمس؟

وهل هي كالسّماء: تُرى ولا تُمْسَكُ؟

وهل هي كالأفق: يشاهَد ولا يدرَك؟

أم هل هي كالنّسيم العابر: يهُبّ ثم ينقطع، ويتلحلح ثم يسكُن؟

أم هل هي كالطّيف الماثل: يتجلّى، ثم يتوارَى في العدم السحيق؟

بلِ الكتابة كالوردة الضّائعة: تعبُق وتنضُر، ثم تذبل وتيبس؛ إذا لم تُقطَفْ في إبّانها، وتُجْنَ في أوانها.

لا! بل الكتابةُ كالذّهب السبِيكِ يمرّ الزمن بها، ويَكُرُّ الدهرُ عليها، فلا تزداد قيمتُها إلاّ ارتفاعاً وغَلاءً، لأنّها جوهرٌ كريم محقَّقُ الخلودِ. وكأنِ الكتابةُ عِطرٌ منتشر: يعبق، ثم يتلاشى في عدم التّاريخ، عبر مجاهل الدّهر العجوز، فيجعله قابلاً للبقاء، أهلاً للعُمران... بل الكتابة شيء آخر. لما ذا لا؟ بل الكتابةٌ ابنةُ اللغة، من أجل منْح القيمة الرّوحيّة والمادّيّة معاً، للغة، لتُصبحَ وسيلة لإسعاد المتلقّي إذا سمعها، والْمُقترئ إذا اقترأها. تِيكَ هي المكتوباتُ الجميلة التي نقترئُ... والتي لا نقترئ أيضاً فتظلّ قابعة بين السّطور، متخفّيةً بين الكلمات، دون أن تفقِد من نَضْرةِ جمالها، ولا من كريم جوهرها، فتيلاً.

اللغة: هي هذه الْوَمَآتُ الصّوْتية، السّحرية العطريّة، التي تُشاكِه أصواتَ الطّير حين تلْغَى بأصواتها، فتتجاوب في جَلْبَةِ الوادي الخصيب، فتملأ الفضاءَ سعادةً وبهجةً وحبوراً. هي هذا الإكسير التّعبيريّ الذي يحوّل العاطفة من خمودها أو مَواتها، مِن تكتّمها أو صُمَاتِها، من رماديّتها وجماديّتها: إلى عَلاقة حيّة، لذيذة، ممتعة، لطيفة، دافئة، ناعمة، طافحة، غامرة، صاخبة؛ بين قلبين، أو بين نفسين، أو حتّى بين عالَمين...

إنّ السّماء لَتجود على الأرض فتهتزّ وتربو؛ فينبت ما كان ميتاً، ويخرُج ما كان متوارياً، ويتفتّح ما كان منغلقاً، ويهتزّ ما كان ساكناً: فتزْدهي الرُّبى ازدهاءً، وتخضارُّ القِمم اخضراراً، وتستخفّ التّلال، وتزهو التِّلاعُ اختيالاً، فيغتدي كلُّ شيء غيرَ ما كانَهُ أصلاً؛ ويُمسي كلُّ ما لم يكن كائناً، كائناً، فعلاً. وإنّ الحبر ليسيل على الورق الأبيض، أو غير الأبيض، فيستحيل إلى مجموعة من الرّسوم، وطائفة من الرّقوم؛ تتّخذ لها دلالاتٍ ذهنيّةً ووجدانيّة ونفسيّة فتتلاقح وتتخاصب... فكأنّ الكتابة ممارسَة للفعل الممنوع![11] بكلّ ما تحمل الْممنوعات من معنىً. الحبر يُخْصب الكتابة حين يسيل. على الأقلّ في تمثّل فرويد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المهُوس بالتّعليل الجنسيّ. والماء يُهَراقُ في... أو على... فيُخصب حياة جديدة ناضرة... والماء ينزل على الأرض فتَخْصَوْصِب هذه الأرض بما أنبتت من كلّ زوج بهيج.

فالسائل الذي هو الحبر، أو الذي كان الحبر، لدُنِ الآباءِ والأجداد، بمثُوبة السائل السحريّ الذي حين يُهَرَاقُ يُخصِب حياةً جديدة. الكتابة، إذن، حياة، وسعادة، ولَذْوَى. بل هي كلّ الحياة في أسرارها وإلغازها. والحبر بمثابة الماء، كما سبق. والورَق بمثابة الأرض؛ والأرض بمثابة الرّحِم التي لها قابليّة الإخصاب والعطاء، وكلّ ذلك من فعل عبقريّة اللغة التي بفضلها اسْتماز الإنسان عن الحيوان، فتمدّنَ وتحضّر، وتعلّم فتبحّر. الأمّ تكابد الأوجاع حين يُلمّ عليها مَخاض الوضع. لكنّها تتلذّذ بوجَعها، في الوقت نفسه وهي تتخلّص ممّا كان مستقرّاً في رحمها؛ فتضع حَمْلَها؛ تُعطي حياة؛ تتخلّص من شيء كانت تنتظره فتُخرجه للنّاس حياةً جديدةً... فهل ولادتها لذوي أو معاناة؟ وهل أوجاعها مُتعة أو مُجاهَدة؟

والكاتب يكتب كتابة؛ يلِد نصّاً من قريحته. يوجِده من عدم نسبيّ، أو مطلق. يُنشئه إنشاء جديداً. يمنحه دِفْءَ الحياة الطّافحة. يحيل العدم الذي كان، إلى وجود كائن، إلى حياة؛ ذلك بأنّه يُحوّل الفراغ الهائل إلى شيء زاخرٍ بالمعانِ، حافلٍ بالدّلالات. وهو في سيرته وسلوكه يلتذّ[12] لأنه يُعطي، بل لأنّه يَهَبُ؛ بل لأنّه يُنشئ نشُوءاً جديداً -كتابةً-، كائناً مرقوماً من لغةٍ التي هي في أصلها أصواتٌ منتظِماتٌ. ويكابد، لأنّه مُضطَرٌّ إلى أن يفكّر؛ يتخيّل؛ يتمثّل؛ يتصوّر؛ يُعْنت مُخيّلته إعناتاً شديداً؛ يبالغ في الإعنات، يشدّد في الإضْناء؛ لا يتساهل؛ لا يرضَى على نفسه -بلغة القُحَيف العُقَيلي العامريّ-؛ لا يتسامح معها؛ يحملها على التّفرّد؛ يُكْرِهُها على التّجويد؛ لا يفتأ يشدّد عليها، ويتشدّد معها في ذلك تشدُّداً... وهو ببعض ذلك يعذّبها وهو إنما يريد إمتاعها، ويُشْقيها وهو إنما يريد إسعادَها؛ فهو، إذن، يتمتّع كما يتعذب، ويشقى كما يسعد، في الوقت ذاته. حين يكتب جملة، كأنّه إنّما ينزع ضرساً، كان قالها المبدع الفرزدق؛ أو يذود سِرْباً من الوحْشِ نُزَّعاً، وقد كان قالها المبدع الآخرُ قبله، سُوَيدُ بنُ كُرَاعٍ العُكْليّ!

وحين يكتب سطراً، فكأنّما يَنتِف من جِلده شعَراً، نقولها نحن، مبتذَلةً لا شعريّةَ فيها!

ويُزْمِعُ الكاتبُ الكتابةَ فلا يكتب. ويريد، في بعض أطواره، فلا يستطيع. ويدعو اللغةَ مداعباً إيّاها فتُعرِض عنه، ولا تُقْبِل عليه. ربما. فيعدل عن ذلك. يُرجئ الكتابة إلى حين... يتحيّن الفرصة الملائمة، ليتصيّدَ اللّغة، كما كان سويد يتصيّد القوافي. ليراودَها عن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نفسها، إن شاءت حلالاً، وإن شاءتْ حراماً! ليُوقِعها في الغِواية، ليواقعَها؛ ولا غِواية امرئِ القيس لفاطمةَ يومَ الغدير!

ولا ينفكّ يتقرّب إليها. يقترب منها. يخطب ودّها متلطفاً معها، متوّدداً لها، خانعاً في حِضنها، ضارعاً بين يديْها، مقبّلاً قدميْها: يتعشّق دَلَّها. يتنشّق شِيحَها، يتشمّم عَرَارَها -ولْتكن، هنا اللغة العربيّةُ لا سَواؤُها، ما دمنا ذكرْنا بعض ما يلازمها-يتابعها وهي شاردةٌ راكظة تعدو أمامه لا تلوِي على شيء، ولذلك لا تكاد تلتفت إليه إلاّ لِماماً. والكاتب الولْهانُ بحبّها، المُدَلَّهُ بدلالها، المفتون بجمالها، تراه وراءها مشمّراً، قافِياً خطاها، قاصّاً آثارَها. يصرّ على اللُّهاثِ بعدَها؛ أيّان حلّتْ، وأنَّى ألَمّت... ولا يبرح بها... ولا يفتأ يدعوها، ولا يَنِي يتلطّف معها، إلى أن تزْدلف منه، ويُغْرِيَها إلى أن تُقبل عليه راضيةً، فتبسمَ له بعد عبوس، وتعْطُوَ بعد تأبٍّ عليه. ويَرضَى بذلك هو سعيداً مزدهياً. على مضض وعلى تذلّل. إنّها لَلحسناء. إنّها لَلْملكة. إنّها اللّغة الساحرة. وإذن، فليس يُجْزئ الكاتبَ أن يَصرِف وهْمَه إلى الكتابة...

فقد يصرف وهمَه إليها [وقد كان أبو عثمان الجاحظ يَقصر هذا الوهم فيَصرفه إلى الخطابة المرتجَلَة وحدَها لدى قدماء خطباءِ العرب].[13] وقد تنهال عليه الألفاظ، أثناء ذلك انهيالاً، وقد تشمُس عليه فلا تنهال، شُموساً. وترى الكاتب يراود الأفكار وقد تنثال عليه وقد لا تنثال. يناغي اللّغة، يغازلها، وتارة أخرى، يلاعبها، ويلاطفها؛ وتارة أخرى يزداد قرباً منها فيحاول ملامسة جسدها لعله أن يمسك بها، أن يأخذ بتلابيبها، أن يأْوِيَ لحِضنها... لكنّها سرعان ما تُفلت منه، تنفلت من قبضته... ثم، كأنّها تؤوب إليه كالسّمكة السّابحة في غمرة الماء الصافي الثرثار؛ فيُمَاسكها، فلا يُمْسكه، ويغالبُها فلا يغلبُها (هنا بالضّم). فتُفْلت منه، فتغبُر في مجاهل الماء، تارة أخرى.

ولفظ بعد لفظ. وفكرة بعد فكرة. وصورة ثم صورة. وموقف بعده موقف؛ واستنتاج وراءه استنتاج: وإذا الكتابةُ تَنْتَسِج؛ وإذا نشْءٌ جديد من الكلام الذي هو ألفاظ يَنْشَأُ...ومن الألفاظ التي هي أصوات؛ ومن الأصوات التي هي إشارات كهربائيّة متقطّعة تنطلق مدوّيةً أو هامسةً من حبال الحَنجَرة تحت نظام معلوم... والعلّة في كلّ هذا النّشء العبقريّ الجديد إنما هو اللّغة. فباللّغة تكون، أو تتكوَّن، الكتابة. وبالكتابة تتشكّل أطراف الحديث. وفي الكتابة تمثُل الحياة بكل ألغازها سعيدةً كانتْ أم شقيّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى نقيض ما يذهب إليه موريس بلانشو من أن الكتابة غايتُها العبث ومظهرها العدَم ومصيرها التلاشي، [14] فإنّ الكتابة، في منظورنا، هي الجِدُّ كلُّ الجِدّ، وهي الحياة كلّ الحياة، وهي الفلاَحُ كلّ الفَلاح (أي البقاء، بلغة الأضبط بن قريع السعديّ). ومتى كانت الكتابة تتلاشَى، فتراها اليوم تتلاشى؟ أم إنما كان يقصد موريس بلانشو الى كتّاب الكتابة؟ حتماً لا. فلا نحسبه كان يريد إلى المبدعين؛ ولكنّنا نحسبه كان يريد إلى الإبداع. ولكن هل هذا ممّا يُعقَل إلاّ إذا كان مندرجاً في حنايا عبثيّة الكتابة الجديدة التي تصرّ على رفض المنطق وتأبّي التّعقّل، وتتمسّك بالجنون؟ ولا عليها أن تكون كذلك! ثم كيف يكون ما هو حيّ نابض، ومتحرّك ناضر، وصامت ناطق، ودالّ مدلول، ولغز مسطور، وسرّ ذائع مكتوم، وفكر ثاقب مكنون: عدَماً؟ إلاّ إذا كان يُقصَد إلى الأيلولة التي تؤول إليها الأشياء، وهي الفناء المحتوم في آخر الزمان؛ فذلك أمر متّفَق عليه؛ وحينئذ لا يفتقر إلى برهنة ولا إلى تقرير؛ إذ كلّ ما، ومَن، على الأرض زائل فانٍ، ولا يبقَى إلاّ وجهُ ربك ذي، أو ذو، الجلال والإكرام.

لا، لا! وما كانت الكتابة قطّ عبثاً، ولا كان الإبداع قط عدَماً، وما كان ينبغي لهما! ولا كان الأدب قط تلاشِياً، وما كان ينبغي له أيضاً. فهل، حقّاً، لا يكتب الكاتبون إلاّ للعبث؛ فتراهم يركضون وراء شيءٍ يتّسم بلباطل والهذيان، والعَدم والتّلاشي؟ وهل هذا ممّا يُعقل في العقل، ويُتصوَّر في التّصوُّر؟

إنّ الكتابة حياة؛ صورة للحياة، كلّ الحياة.

وإنّ اللّغة هي مِرآة هذه الكتابة/ الحياة. فأيَّتُهُما الحياة: آللّغةُ التي تختلج في الصّدور، أم الكتابة التي تتجلّى في السّطور؟ اللغة التي تنبعث من وجود العدَم، أم الكتابة التي تجسّد وجود الوجود؟

وإنها لألغازٌ محيّرة لا تنفكّ أسرارها تزداد إلغازاً، وعلى وجه الدهرِ الدَّهاريرِ. وإنّها لآثارٌ باقية لا تدرُس أُخْرى اللّيالي.

وإنّها لَثمارُ الخيال السّخيّ.

وإنها لَتُصوِّر ثم تمحو، وإنّها لتُحَسّن وتنضِّرُ ثم تقبّح وتُبَشِّعُ.

وإنّها لَتُضْحك وتُبْكي، وإنّها لتُسعد، ولكنّها لا تُشقي.

وإنّها لقبسٌ من نور الوجود الذي نتحدّث عنه فيها فيزْدهي، ونصِفُه بها فيَتَرَهْيَأ، ونُدركه من خلالها فيختال، ونتّخذ منه، عبْرَها، موقفاً ما: فنُخلِّد بها، ونَخْلُد فيها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل الكتابة، مثلُها مثلُ الحرّيّة، كأنّها السّرّ، كأنّها النّور، كأنّها القيمة الكبرى، كأنّها العناية العليا؛ كأنّها مفتاح المعرفة العُظْمى... كأنّها الوعي نفسُه للكشف عن أسرار عطاءات اللُّغَى؛ لإثمارها وثَمَرها أيضاً؛ بل كأنها الجهد نفسُه الذي يريد تجاوُزَ هذا التمزّق.[15] فالكتابة حرّيّة إذْ هي إبداع؛ والكتابة نَضْرةٌ إذْ هي نشْءٌ جديد. والكتابة حرّيّة إذ هي خير وجمال. والكتابة حرّيّة إذ هي تقاوم الصُّماتَ، من جنس الصُّمات. والكتابة وجودٌ إذْ هي مُصارِعةٌ لكلِّ ما يضادُّ العدَم والتّلاشي؛ لا هي العدَم والتلاشي، كما كان يزعم موريس بلانشو. والكتابة حرية إذ تنهض لتُنير الظّلام، وتقوم لتمجيد المحبة والخير والسّلام.

والكتابة حرّيّة لأنّها كانت من أجل الدّفاع عن الحقّ.

والكتابة حرّيّة إذْ هي وعْي بالوجود؛ إذ هي خيال مُشبَع. والكتابة وعْي إذ هي تمثّلُ لما هو أجمل في الكينونة.

والكتابة وعْيٌ لأنّها التّاريخُ نفسه، التّاريخ الحقّ الصادق، لا التاريخ الرسميّ المزيَّف.

ولكنّ جان بول سارتر لا ينظر إلى الكتابة، ولا إلى اللّغة خصوصاً، على النّحو الذي ينظر به إليهما منظِّرُوا الأدبِ؛ إذ الشّاعر لديه:

«أبعد ما يكون من استخدام اللّغة أداةً. وقد اختار طريقه اختياراً لا رجعة فيه، وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعريّ في اعتبار الكلمات أشياء في ذاتها؛ وليست بعلامات لِمَعانٍ (...). فالنّاثر دائماً وراء كلماته متجاوز لها ليقرب دائماً من غايته في حديثه. ولكن الشاعر دون هذه الكلمات لأنها غايته. والكلمات للمتحدث خادمة طيّعة، وللشّاعر عصيّة أبيّة المراس لم تستأنس بعد».[16]

فسارتر، في هذا التأمّل [وإن كان النّقّاد الفرنسيّون يَعدّون أفكار كتابه -ما الأدب؟ – الذي جئنا منه بهذا النّصّ انتهت بعد عشرِ سنواتٍ من تأليفه؛ أي لدى نهاية الأعوام الخمسين (جاك لوكارم، الموسوعة العالميّة : 462.16) : فإننا نريد أن نناقش الرّجل لاسمه، وعالميّته. وإنّا لا نتّفق مع مؤرّخي الأدب الفرنسيين في الحكم القاسي على أفكار الرّجل بالإنتهاء، لمجرّد مرور عشرِ سنواتٍ عليها. وحتى إذا كنا نحن أيضاً، ربما نعدّها كذلك من بعض الوجوه، أو كثيرها؛ فإنّ مناقشتها من حيث هي تناولٌ لإشكاليّة موضوعنا، هنا، أمرٌ من الضّرورة بمكان مكين] متجاوَز في جملة أمور، منها:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. إنّ سارتر يميّز تمييزاً تقليديّاً، بادياً، بين الشّعر والنّثر؛ ويجعل وظيفة النّثر تأليفيّة تقريريّة ابتذاليّة بالضّرورة. فهذا النّثر الذي يتحدّث عنه سارتر لا وجود له إذا كان في المستوى الذي نستطيع أن نطلق عليه «الكتابة الأدبيّة». إذْ مفهوم الكتابة الجديد ألغى، اليوم، من منظور كثير من النقاد الحداثيّين، الحدودَ الاصطناعيّة التي كانت تقوم بين الشّعر والنّثر الأدبيّ. فليس هناك إلاّ شيءٌ واحد، ووحيد، اِسمه الكتابة فقط، ونحن لا نزال نتبنَّى هذه النظريّة.

2. وحتى في حال مجاراة سارتر، فيما قرّر من بعض هذا التمييز بين الشعر والنثر؛ فإن النثر الذي يتحدّث عنه، هو، هنا، وبهذه المواصفات التي ذكرها، ليس أدبيّاً؛ وإمّا لا، فما شأن التعرض له في كتابةٍ تنظّر للأدب؟ إن النّثر الذي كان سارتر يتحدث عنه إنما هو نثر الفلسفة والتاريخ ونحوهما، لا نثر الرّواية والقصة والمقالة الأدبية، في أرفع مستويات نسوجها اللغويّة.

وهو يحدّد هذا الموقف، بوضوح أكثر، في موطن آخر، من كتابته عن الأدب؛ حين يقرر أنّ مأدّة فنّ النثر التي تمارَس في الكلام [ولنلاحظ أننا لم نعد نحن نصطنع، كما كنا وَمَأْنا إلى بعض ذلك منذ حينٍ، مصطلحَيِ «الشعر» و«النثر»؛ وعوّضناهما بمصطلح «الكتابة»] بطبيعتها هي ذات دلالة؛ أي أنّ الكلمات قبل كل شيء ليست بأشياء».[17] فسارتر يُعْنت نفسه، هنا، إعناتاً شديداً في إقناعنا بوجود فروق في الكتابة الأدبيّة؛ وأنّ النثر مختلف كلّ الاختلاف عن الشّعر؛ ثم يحدّد لكلّ منهما وظيفته، وكأنّه أبو هلال العسكريّ في كتاب الصناعتين، بُعِثَ من رمسِه في القرن العشرين! فالنَّشاز الذي يكمن في رأيه أنّ ذلك، كما سلفتِ الْوَمْأَة، لم يعُد قائماً؛ وأن الشعراء أنفسَهم اغتدَوْا يكتبون قصيدة النّثر؛ وأن الرّوائيين والقاصّين يجنحون للشّعر في كتاباتهم. فلا نثرَ، إذن، ولا شعراً؛ ولكن كتابةً ليس غيراً. وإمّا لا، فما قول الشيخ سارتر في الكلام المنظوم؟ أم كان يريد إلى بعض التّعريفات القديمة، ومن أشهرها تعريف قدامةَ، للشعر التي تنهض أساساً على أنه موزون مقفًّى؛ دون مراعاة المشكّلات الشعريّة الأخرى إلاّ قليلاً، ومنها «الأدبيّة» (LA LITTERARITE) بتنظير ياكبسون، وجمال التصوير بتنتظير كلّ النقّاد الجُدد؟ أم عنايته بالفلسفة أبعدتْه عن الخوض في الأدب في مستوىً من التّنظير يليق بعمق فكره؟...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعلّ السّؤال الذي اغتدى اليوم مطروحاً على نظريّة الأدب هو: هل ما نكتب فيه أدبيّة، أو لا أدبية فيه؟ وإن كانت موفورةً فيه فما مقدارها؟ ثم ما المعايير الصارمة التي بها، أو بفضلها، نستطيع تحديد هذه الأدبيّة العائمة في الكتابة، وهو ما سعَى إليه رومان ياكبسون؟

3. إنّ كاتب الرّواية أو القصّة أو المقالة الأدبيّة لا يكاد يختلف، في حقيقة الأمر، عن كاتب الشّعر إلاّ من حيث التّكثيفُ الذي نلاحظه، أو يجب أن يكون على الأقلّ، في الكتابة الشّعرية. وعلى أن هذه الخاصّية نفسَها ليست موقوفة على الكتابة الشّعرية وحدَها؛ بل هي جائزة الإنصراف، ودونما حرج، إلى الكتابة السّردية أيضاً.

فكاتب الشعر، في الحقيقة، هو كسَوَائِه، من المتعاملين مع اللّغة الإبداعية. فكلّ يعدّ اللّغة شيئاً في ذاتها، وغايةً في نفسها، بشكل أو بآخر. وقد كان هذا حدث في بعض الكتابات العربيّة القديمة كالمقامات والرّسائل الأدبيّة التي تعِجّ بها كتب التراث العربيّ عجيجاً. فرسالة مثل رسالة «التّربيع والتّدوير» لأبي عثمان الجاحظ لا نجد فيها شيئاً غير اللّغة وعملِها وتوالدها وتخاصُبها وتعاطِيها. فاللّغة في هذا الإبداع العجيب هي التي تتحدّث، واللّغة هي وحدَها التي تتعامل مع نفسها، في نفسها، في نسْجٍ لها قلّ له المثيل. وإذن، فإنّا لا ندري ما الكتابة النّثريّة التي كانت في ذهن جان بول سارتر؛ والتي تكون اللّغة فيها ثانويّة الوظيفة، قاصرة الأداء؟

4. ثم ما هذا الخلط بين المتحدّث والكاتب والشّاعر في موقف واحد؟ ولمَ يقارَن هنا سلوك المتحدّث الذي هو كحاطب بليل، يأتي بكل شيء، وكيفما اتفق، بسلوك الشّاعر الذي ينتقي ألفاظه انتقاء، ويحمّلها من المعاني، عادةً، أكثر ممّا وضعت له من طاقة الاحتمال في أصل المعجم؟ لكن حتى هذا ليس وارداً في كلّ الأحوال؛ فمن الشّعراء مَن يقرض الشعر وكأنّه يكتب النثر؛ وهو على ذلك مصنَّف في طبقة الشّعراء لدى جميع النّقاد! ولْنضربْ لذلك مثلا أبا العتاهية الذي كان يقول للنّاس: لو شئت أن يكون كلامي كلُّه شعراً لفعلت.

ومثل هذه الحقائق تجعل مقولة سارتر التي ترى أنّ اللّغة تعتاصُ بين يدَيِ الشاعر وتتأبّى عليه فلا تنقاد له إلاّ بعناء شديد: قديمة؛ وقد كنّا رأينا أنّ ذلك قاله الفرزدق بتشبيهه قول كلمة أشدّ مكابدة من نزْع ضِرْس، كما جسّده سُوَيْدُ بنُ كُراعٍ العُكْليُّ في بيته الشهير:

أبِيتُ بأبوابِ القوافي كأنّما أذودُ بها سِرْباً من الوَحْشِ نُزَّعا!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك بأن مثل هذه الحال كانت معروفة لدى الشعراء والنقّاد العرب؛ فكانوا يردّدون عن الفرزدق وجرير أنّ الأول كان ينحت من صخَر، والآخر يغرف من بحَر. فمسألة اعْتِيَاص اللّغة أو انقيادها للأديب ليست مطلقة، ولا عامّة، بحيث يمكن أن نقرّرها على جميع المبدعين؛ فمنهم من ييسُر عليه انثيال اللّغة فتراه يكتب بها وكأنما يغترف من بِحَرٍ؛ ومنهم من تعتاص عليه اعتياصاً شديداً فلا تُقْبِل عليه إلاّ بمقدار. لكن الأشيع بين النّاس أنّ كلّ أديب عملاق يطوّع لغته، ويتحكّم فيها؛ فيستطيع اصطناعها كيف يشاء في كتابته. ولكن أين العماليقُ في الكتابة؛ فلعلهم أنْ لا يكونوا إلاّ قليلاً عبر جميع الدّهور؟

ومن أغرب ما في موقف سارتر إصرارُه على تمييز الشّاعر عن النّاثر تمييزاً شديداً؛ وأنّه لا يرى أيّ «تشابه في عملهما في الكتابة إلاّ في حركة اليد ورسم الحروف. وعالماهما، بعد ذلك، منفصلان لا صلة بينهما (...). فالنّثر في جوهره نفعيّ، وإنّي لأميل -يقول سارتر-إلى تعريف النّاثر بأنّه الذي «يستخدم» الكلمات؛ فقد كان السيد جوردان ناثراً حين طلب حذاءه، وكذا هتلر حين أعلن الحرب على بولونيا».[18] فربما لاَنَ -بلغة جرير وأصحابه-أفصحَ سارترُ عما كان يريد. إنّه يساوي بين نثر السيّد جوردان (وهو شخصيّة من شخصيّات موليير المسرحيّة) حين كان يلتمس حذاءه، وبين نثر هتكور مالو في روايته «مع الأسرة»؛ وبين نثر هتلر حين أعلن الحرب، وبين خطبة عليّ بن أبي طالب حين أغار سفيان بن عوف على الأنبار.[19]

ولعمري إنّ هذا لتصوّر فاسد للمسألة؛ فالنّثر الذي يتحدّث عنه منظّرو الأدبِ ليس نثر الخُطب السّياسيّة المرتجلة، ولا التّقارير الصّحفية المبتذلة، ولا نثر الحياة الأكثر يوميّةً كالنّثر الذي يصطنعه النّاس في تعاملات البيْع والشّراء في الأسواق، ولا في التماس الأحذية من الخدَم، ولا حتّى في كتابة تقاريرَ يوميّةٍ شديدة العجَلة في الصحف اليوميّة. فمثل ذلك النثر لا يمكن أن يرقى إلاّ إلى مستواه الذي وُضع له؛ لكن النّثر الذي نريد نحن إليه هو الكتابة الرفيعة. وهذا الجنس من الكتابة بمقدار ما هو حرية، فهو جمال؛ وبمقدار ما هو جمال، فهو إبداع؛ وبمقدار ما هو إبداع، فهي نِتاجُ خيالٍ، وثمارُ إنشاءٍ ... فهذه الكتابة الرفيعة، الكتابةُ الأدبيّة بتعبير آخر، هي، إذن، بحكم طبيعتها الإبداعيّة لا تستطيع أن تختلف عن الشّعر اختلافاً جوهريّاً ولو أريد لها ذلك، ما ظلّت كتابةً كالشعر الذي هو أيضاً لا يمكن أن يكون إلاّ كتابةً ولو خرج من جِلده خروجاً.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأما كون الكتابة نفعيّة فإننا نوافق سارتر على ما ذهب إليه ما دام لا يعني الكتابة الأدبيّة؛ ولكنه يعني كلاماً من جنس كلام السيد جوردان، وخطب هتلر النازيّة... إنّ الكتابة التي تجلب السعادة بما هي كائن إبداعيّ عجيبٌ، لدينا، لحظةٌ تتمزّق فيها حجب الخيال العظيم فتنتَسِج بناتُ اللّغة بضفائرها، داخل ضفائرِها، عقائِصَ ومُسْتَشْزَراتٍ؛ لكي تتحزّم، فيما بعد، بها. إنّها لحظة عطاء، وإنّها إيذانٌ بميلاد عالَمٍ جديد تُنشئه اللغة من خيال كتابتها إنشاءً.

إنّها اللّحظة التي تكون بين العدم والحياة؛ فيتلطّف لها الأديب فيسُلُّها من ذلك الوضع الزِّئْبَقِيّ المَرِجِ كيما تمثُلَ للوجود في عمله العجائبيّ، مختالةً كالحسناء، عبِقة كالوردة، ناضرة نضارة الحياة في جمالها وطراوتها، وجِدّتها وحركتها. وإنّها لَلَّحظةُ التي تمثل لتنسج الصّمتَ فتُنطِقه إنطاقاً إذا اقْتُرِئ اقتراءً، وتنسجُ العَدم فتبعث فيه إكسير الحياة، مع قدرتها المدهشة على نقْض نسْجِه نقْضاً.

وإنّها لَلّحظةُ التي يستحيل فيها السّكون إلى حركة، فالكتابة، إذن، حركة... ذاتُ حرَكيّة.[20]

وإذا كانت الكتابة، من وِجهةٍ أخرى -ومن منظورِ آخرين من عابثي الحداثة الفرنسيّة-عدَماً، وتلاشياً، وفَناءَ، وهَباءً، وهذَياناً، وهُراءً؛ فلما ذا، إذن، يكتب الكاتب؟ وما قيمة اللغة التي يكتب بها؟ وهل الكاتب الأديب الذي يُنشئ خلْقاً جديداً من الإبداع من خياله، يكون مجرّد واعظٍ محترِف لا مناص له من إلقاء خطبته التي كرّرها مئاتِ المِرَارِ، وبثّ موعظته في مجموعة من الناس معيّنين، متعبّدين أو غيرَ متعبّدين؟ أم هو بمَثُوبة المتفنّن الذي يريد أن يعبّر عمّا في قرارةِ نفسه، وعبْر خياله وفكره، لِيزْدَفَّهُ إلى مجموعةِ النّاس الذين يقاطنهم ويقاطنونه، بلغتهم التي يَلْغَوْنَ بها؟

وإذا لم تكن الكتابة حرية، ولا جمالاً؛ ولا حركة، ولا حياة؛ ولا محبّةً ولا خيراً؛ ولا نَضْرةً ولا سلاماً؛ ولا عبَقاً ولا إكسيراً؛ ولا نشوةً، ولا لذّوَى؛ ولا مُتْعة، ولا إشراقة؛ ولا ضياء، ولا سناء؛ ولا جلالاً، ولا خيالاً؛ ولا حكمة، ولا لحناً؛ ولا شذىً ولا عبَقاً، ولا هِبَةً ولا عطاءً؛ ولا ذات قدرة على الإسعاد، ولا ذات قابليّة للوجود والإيجادِ... فلمَ، إذن، تكون الكتابةُ، أو تكونُ هذه الكتابةُ، كتابةً، لِمَهْ؟ بل كيف ستكون، حينئذ، الكتابةُ، كيْفَهْ؟ بل لما ذا كانتْ فلم تَكُنْها؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل لما ذا ستكونُها، وهي لا تستطيع أن تكونَها؟ وهل ستكون، إذن، مجرّد لغة خاوية من دلالتها، خالية من معانيها، ذات طُبولٍ تصْدعُ، ولا تصدح، بأصواتها؟

كلاّ، والكتابةُ ليست مجرد لغة فتكونَ مشترَكةً بين الكتّاب جميعاً؛ كما أنها ليست أسلوباً فتكون خالصة لكل أحد منهم؛ ولكنّما الكتابةُ شكل يختاره الكاتب بقصديّة بالنسبة إلى الذين يرؤن أنّ الكتابة يجب أن تكون نفعيّة؛ وغير قصديّة بالنسبة إلى الذين يرَون الكتابةَ لغةً منسوجة من نفسها، لنفسها، ويجب أن تُسَجَّلَ بالقلم كيفما وردتْ دون اختيار أو انتقاء لألفاظها. ذلك بأن اللّغة والأسلوب يندرجان ضمن نظام الطّبيعة؛ فكأنّ الكتابة، إذن، نظام الاختيار، كما يرى بعضَ ذلك رولان بارط؛ فهي وحدها التي تُلزم وتُفضي إلى دلالة. فدرجة الصّفر للكتابة هي لحظة من التّاريخ لا يريد فيها الكتّاب، وهو ماضُون في وصْف العالم، أن يبرّروا هذا الوصف مصطنعين كتابة محايدة.[21] لكن هل يجوز أن نتصوّر أنّ الكاتب حين يكتب عن العالَم للعالم، وعن المجتمع للمجتمع، وعن النّاس للناس، وعن نفسه، أيضاً، لنفسه، يكون، و/أو يستطيع أن يكون، في موقع الحياد الذي يزعمه بارط؟

لا نحسب أن كاتباً ما يستطيع أن يقف موقف الحياد من عصره ومجتمعه وسَيرورة التّاريخ؛ وإلاّ فما الكتابة إذا لم تكُ موقفاً، وليس ضرورة أن تكون نفعيّة بالمعنى الاقتصاديّ أو المعيشيّ؟ ولما ذا يكون الكتّاب؟ وما ذا سيكتبون خارج اتّخاذ موقف ممّا يجري ممّا حَوالَهم؟ وهلا كسروا الأقلام ومزّقوا الصحائف واستراحوا، وأراحوا؟ هي، إذن، كلمة لبارط تحمل كثيراً من المغالطة. لا يوجد، في الحقيقة، أيّ حياد، في أيّ شكل من الأشكال في العالم؛ فكما لا يوجد هذا الحياد في السياسة، فكذلك لا ينبغي له أن يوجد في الكتابة والفنّ، ولا حتّى في بعض العلم أيضاً. فكيف يزعم رولان بارط أن الكتّاب يكتبون كتابة محايدة؟ وهل كان حقاً مقتنعاً بما كان يقول لحظة كتابة مقولته؟ أم هي مجرد فلْتةٍ كان يرمي بها، أساساً، إلى شيء من مخالفة النّاس؟ وهل الكتابة الجديدة التي أُقِيم من حولها التّهويلُ، وتُلُقِّيَتْ بالتّصفيق والإكبار طوراً، والتّصدِيَة والإنكار طوراً آخر؛ تندرج ضمن حياديّة الأدب المزعومة؟

إن الكتابة على الرّغم من تخلِّيها عن وظيفتها الأدبية، في بعض مظاهرها؛ إلاّ أنّها تغتدي إحدى وسائل الاستكشاف لخبايا العالم وخفاياه؛ ولتجمعَ ما يمزّقنا شرّ مُمَزَّق: الأرَقُ والنّوم؛ الحقيقة والحُلم؛ العقل والجنون؛ الموضوع والذات؛ الماضي والحاضر؛ الحياة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والموت؛[22] فإنّها تظلّ محتفظة بوظيفتها الإجتماعية، شئنا أم أبَينا. إنّ الكتابة الجديدة يمكن أن تذهب إلى أبعد الغايات في الاستكشاف الفضائيّ، والفيزيائيّ، والعبثي؛ ولكنّها، وفي كلّ الأطوار، تظلّ محتفظة بأدنى نسبة من الأدبيّة، والجماليّة، والإجتماعية، والتّاريخيّة، والتّاريخانيّة أيضاً: هي التي تجعل منها كتابة، بل ربما كتابة نافعة، ولا نقول نفعيّة.

إنما الكتابة قراءة الحلم، والجنون، وما يوجد في الجانب الآخر من المرآة.[23]

بل الكتابة قراءة ما وراء الحلم: وما قبله، وما بعده، وما حوله.

بل الكتابةُ قراءة للغائب، كالصّلاة على الغائب. هي قراءة للمجهول، للخفيّ، للمستحيل.

بل هي قراءة لكلّ ما كان ويكون، وربما ما يمكن أن يكون.

إنّ الكتابة رائدة، سبّاقة، طبيعتُها الإستكشاف، ووظيفتها التطلّع والفضولُ.

إن طبيعة الكتابة الإبداعيّة تجعلها لا تسيل بالحِبر إلاّ من أجل رسْم عالَم جديد، وتمثّل حياة جديدة تكيّفها بحسَب طبيعة كاتبها، ومزاجه، وإديولوجيّته، وثقافته، وعبقريته، ورؤيته إلى الحياة، وفلسفته فيها.

إنّها هِبَة الله للنّاس تأتيهم عن طريق أقلام الكتّاب الخيّرين المتسقّطين لألفاظ اللغة.

إنّها عنايته مجسّدةً في بعض أعمال خَلقه.

إنّها تبشير بما في الغيب السّحيق، من مجهول ومأمول.

إنّها الْتقاط للحظات السعادة، أو لحظات الألم والشقاوة، فتخرُج في ثوب ناضرِ الْمَرْآة، فاقع اللون، يسرّ من رآه.

بل إنّها تباشيرُ الوجود حين يُطلّ من عين الصباح الجديد.

وإذا كان بنفنيست يرى، بحكم أنّه لسانيَّاتيٌّ «أنّ اللّغة تعيد إنتاج الحقيقة»؛[24] فإنّ الرّأي من منظورنا نحن ليس كما قال. فإنما اللّغة كائن شارد مارد، يعْتاص على الكاتب أن يتحكّم فيه، ويحمّلَه، في كلّ الأطوار، بالمعاني الجديدة، بلْهَ الحقائق الجديدة. وربما الحقيقة من حيث هي. إذ ليس هناك حقيقة خارج اللّغة من موقف بعض الحداثيّين. فاللغة أداة للكتابة؛ والكتابة محاولة للإستكشاف، وليست مجرّد إطار لتقرير الحقائق، وتسجيل أحداث التّاريخ، بشكل غير مباشر طبعاً. ذلك بأنّ الذين يكتبون من أجل التّأْريخ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمجتمع من المجتمعات لا ينبغي لهم أن يكونوا لا كتّاباً ولا مؤرخين؛ لأنّهم دون درجة الكتابة من حيث خصبُ الخيال؛ ثم لأنهم دون مستوى منزلة التّاريخ من حيث عدمُ امتلاكِهم أمانة التّوثيق، ودقّة التّحقيق.

وكما أنّ التّاريخ ليس كتابة، فإنّ الكتابة ليست تاريخاً؛ فكلاهما شيءٌ آخرُ؛ وكلاهما، إذن، بعيدٌ عن الآخر. فالكتابة تفسدها «حقيقة» التّاريخ، وموضوعيّتُه، وفلسفته، وإدْيُولُوجِيَاهُ أو هواهُ [وإن كانت الكتابة تشترك مع التّاريخ في هذه الخاصِّيَّة]، ومنهجيّته: وما فيه من تكلّف ورسميّة، وما فيه من تحيُّزٍ ملفوف في قرطاس الحِياد والموضوعيّة، باسم الوطنيّة أو باسم الإديولوجيا؛ وما فيه من ادّعاء الحقيقة حتى في حال غيابها منه؛ وما فيه من ادّعاء الواقعيّة حتى في حال تلبّسه بالحُلم، والذاتيّة.

الكتابة حقيقة ملفوفة بِكِساءِ الخيال، وعلى أنّ الحقيقة، هنا، واردةٌ بالمفهوم النّسبيّ؛ أو بالمفهومِ غيرِ الفلسفيّ خِصِّيصَى. الكتابة، إذن، حقيقة الحقائق؛ لأنها قادرة على استكشاف كلّ العوالم المجهولة التي لا يستطيع أيّ علْم اسْتِكْنَاهَهَا، ولا أيُّ تاريخ وصْفَها، ولا أيُّ جغرافية رسْمَ خارطتِها... تِيك هي عبقريّة الكتابة: حقيقتُها في خياليّتها؛ وخياليّتها في حقيقيّتها. كلّ ما تقوله الكتابة -التي هي ابنةُ اللغةِ التي هي ابنةُ الأصواتِ التي هي وَمَآتٌ دُسَّت في الدماغ البشريّ فلا دَيّارَ يعرف خفاياها-أو تأتي به ليس صدقاً؛ ولكن لا دَيّارَ يجرؤ على تكذيبه. لا أحدَ يرفضه. لا أحدَ يلوم الكاتب الذي كتبه. حتى إنّ الحريريّ استغفر الله، في خاتمة مقاماته، على ما يمكن أن يكون قد اجترمه من ذنْبٍ وهو يكتبها: «وأنا أستغفر الله تعالى مما أودعتها -يقول الشّيخ-من أباطيل اللّغو، وأضاليل اللّهو».[25] وقد استغفَر اللهَ الشيخُ مما كتب لاعتقاده أنّ الكتابة لغوٌ ولهو؛ ولم يكن يدري، أو لم يكن يريد أن يدريَ، أنّها خيال وعطاء، وأنّها إلهامٌ من العناية العليا وجمالٌ وُضِعتْ في القلم الذي به يَسْطُرون.

إنّما الكتابة سِحرٌ؛ لأنها تجعل الناس جميعاً يُقِرّون بصدق ما تدّعيه، وهم، على ذلك، يعلمون، أنها مجرد عطاءٍ بديعٍ يمثُل في كِساء الحقيقة الجميلة طوراً، والقاسيَة طوراً آخر؛ فإذا غيرُ الصّحيحِ يغتدي في الكتابة الأدبيّة صحيحاً؛ وإذا المرفوض في التّاريخ يُمسي فيها مقبولاً. وعلى الرغم من أن الكتابة ليست الحقيقةَ، ولا التّاريخ، ولا الواقع؛ إلاّ أنّها، على ذلك، هي كتابة الكتابات. وهي أوّلاً وأخيراً ليست إلاّ عطاء اللّغة السّخيّة العصيّة، الزّكيّةِ السّمِيّة معاً. فأيُّ شيء غيرُ الكتابةِ التي هي البِنتُ الشرعيّة للّغة منذ الأزل يستطيع أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُروِّح النفوسَ، نفوسَ الحَيَارَى؛ وما ذا سَواؤُها يمكن أن يُسعد القلوب، قلوبَ الْحَزَانَى؟ فما الكتابةُ إلاّ سعادة ونورٌ، ولَذْوَى -بلغة عائشةَ-وحبورٌ.

الهوامش:

[1] ينظر ابن منظور، لسلان العرب، لغا.

[2] ينظر الجوهريّ، الصحاح، لغا.

[3] اللسان، بحر.

[4] أنشأنا هذا المصطلح من وحي التّراث النّقديّ العربيّ الذي يقسّم الشّعراء إلى شاعر، وشويعر، وشُعرور؛ فقلنا نحن: كاتب، وكُوَيْتِبٌ، وكُتْبُوب من وجهة، ومن وحْي مصطلح رولان بارط الذي يقسّم الكتّاب إلى: Ecriain et écrvant.

[5] Roland Barthes, Le degré zéro de l' écriture, p.11.

[6] André Akoun, Les formes nouvelles de la critique, in La littérature, du symbolisme au nouveau roman, p. 96. Ibid., p. 94.

[7] Cf. Ducrot et Todorov, Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage, p. 249.

[8] Ibid., p. 435.

[9] Cf. Courtés et Greimas, Sémiotique: Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p. 15.

[10] Cf. Freud, in J. Derrida, L'écriture et la différence, p.p. 338-339.

[11] Cf. R. Barthes, Le plaisir du texte, p.11.

[12] ينظر أبو عثمان الجاحظ، البيان والتّبيين، 3.. 25

[13] M. Blanchot, Le livre à venir, in Pierre Deboisdeffre, Les écrivains français d'aujourd'hui, p. 122.

[14] R. Barthes, op. Cit.

[15] سارتر، مالأدب؟ ترجمة غنيمي هلال، ص10.

[16] م. س.، ص. 16.

[17] م.س.، ص.17.

[18] ينظر نصّ هذه الخطبة العجيبة في الجاحظ، م.م.س.، 2. 42-50.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[19] عبد الملك مرتاض، كتابة كأنّها الحركة، في مجلة «كلمات»، المنامة، ع. 10-11، 1989، ص.72-85.

[20] R.Barthes, in La littérature du symbolisme au Nouveau Roman, p. 30-31 (من الأدب: الرمزيّة إلى الرواية الجديدة).

[21] André Breton, in La littérature, p. 47.

[22] Bernard Gros, Historique, in La littérature, p. 202.

[23] Emil Beneveniste, Problèmes de linguistique générale, p. 25.

[24] الحريري، المقامات، (الخاتمة)، 4. 272، شرح أبي العبّاس أحمد الشّريشي، القاهرة، 1952.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com